التحولات العمرانية في الواحات: حالة واحة مزكيطة – المغرب –

ايت همو محمد 1
Hammouda.taghrout@gmail.com

ملخص:

شهدت واحات الجنوب المغربي، الواقعة بين جبال الأطلس الكبير شمالا والصحراء جنوبا، استيطانا بشريا قديما خلف إرثا عمرانيا وثقافيا تشهد عليه القصبات والقصور والمباني القديمة، لكن عرف تحولات عمرانية مهمة، حيث ظهر السكن العصري، الشيء الذي ساهم في حدوث اختلالات مجالية مهمة أدت إلى اندثار خصوصيات الواحات.

تسعى هذه الدراسة، إلى تبيان مظاهر تحولات نمط السكن الواحي بالجنوب الشرقي المغربي من خلال حالة واحة مزكيطة، مع إبراز بعض الاختلالات المجالية لهذا النوع من السكن داخل الواحة. وذلك ارتكازا على منهجية جغرافية، قائمة على الملاحظة والتحليل والاستنتاج، ومنهجية تاريخية من خلال فهم تحولات السكن بالواحة. وذلك بالاعتماد على تقنيات متعددة: العمل البيبلوغرافي والعمل الميداني.

الكلمات المفتاحية: الواحة، القصر، القصبة، السكن الواحي، التحولات العمرانية

- 1. باحث بسلك الدكتوراه -كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس سايس - المغرب

Abstract:

The oases of the south of Morocco, located between the High Atlas Mountains in the north and the desert in the south, witnessed an ancient human settlement which has left an urban and cultural heritage that Is witnessed by the "Kasbahs» and "Qsors". Howe ver, the son witnessed a rapid urbanization and have been influenced by globalization, where modern housing (cement and iron) wreaked important field imbalances which have led to the extinction of the peculiarities of the oases.

This study seeks to show the manifestations of the changes in the pattern of oasis housing in the southeast of Morocco, specifically the " Mezguita oasis" while highlighting some of the field imbalances of this type of housing within the oasis. This is based on a geographical methodology, relying on observation, analysis, and conclusion, and a historical methodology through an understanding of the housing transformations in the oasis, using multiple techniques: bibliographic work, field

Keywords :Mezguita oasis, Qsar, Urban transformation ،oasis

.

مقدمة :

تعد الواحة منظومة تتألف من منظومات فرعية تشمل جوانب مختلفة منها الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ولا يتأتى الفهم الحقيقي للواحة إلا ضمن هذا السياق، وقد كان لامتزاج تلك المنظومات الفرعية الدور الحاسم في رسم السمات العمرانية المختلفة. وانطلاقاً من ذلك فإن النسيج العمراني في الواحات تميز عن غيره من الأمكنة من خلال هندسته ومواد بنائه المحلية، والتي تمثلت أساسا في القصور والقصبات المبنية بمحاذاة واحات النخيل، وهي عوامـــل شـــكلت فـــي مجموعها موروث عمراني محلي أعطى لهذه الواحات هويتها العمرانية. إلا أنه في الآونة الأخيرة ونظرا لعدة اعتبارات ومتغيرات أصبحت الواحة تعيش جملة من التحولات لاسيما ما تعلق منها بالجانب العمراني، إذ لم تعد الواحات اليوم كما كانت عليـــه من قبل. إن حقيقتها العمرانية والاجتماعية اليوم تؤدي بنا إلى الوقوف على ساحة من التحولات العميقة والمتسارعة، وهو الأمر الذي يبرز هنا مسألة الحفاظ على النمط العمراني الأصيل لهذه الواحة، وبالتالي الحفاظ على الهوية العمرانية لواحتنا.

وعليه سنحاول في هذه المقال العلمي معالجة هذا الموضوع باختيار كنموذج للتعمير فـــي واحات الجنوب الشرقي واحة مزكيطة التي تشهد جملة من التحولات العمرانية، والتي وإن كانت جزء من المراحل العمرانية للواحة إلا أنها أحدثت تغيرا في الهيكل العمراني. لأسباب عديدة، منها ما يتعلق بنمو السكان وما يلحق ذلك من احتياجات شـــتى، ومنها ما يتعلق بالأنشطة، وأيضا

جزء من ذلك مرده إلى القرارات الإدارية، بالإضافة إلى تغير ذهنيات بعض الســـاكنة بشكل يتمرد على الموروث المحلي، و قد ظهرت نتائج هذا التحول في وظيفة وشكل وحجم الواحة. وسنقوم هنا من خلال المعاينة الميدانية بالتركيز على التحولات التي مســـت الجانـــب المورفولـــوجي للنســـيج العمراني ونمط وهندسة المساكن، وأهم الأسباب التي أدت إلى ذلك، والنتائج المترتبة عن هذا الأمر، وفي الأخير وضع تصورات مستقبلية للتعمير من خلال جملة من الاقتراحات والتوصيات، معتمدين في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي.

إشكالية الدراسة:

شهدت واحة "مزكيطة" استقرارا سكانيا قديما ارتبط بممارسة الأنشطة الفلاحية في بيئة صحراوية جافة، مستغلا مياه وادي درعة ومياه الفرشة الباطنية. هذا الوضع، فرض على الساكنة منذ القدم تشييد نمط سكني يلائم خصوصيات المجال والتأقلم مع الظروف المناخية الصعبة .

لكن في الآونة الأخيرة حدثت تحولات عدة في نمط السكن بالواحة، حيث أدخل الإنسان الإسمنت المسلح وكل مواد بناء السكن العصري على السكن التقليدي والمتمثل في القصور، والقصبات، والزوايا وغيرها، في الوقت الذي كان يشكل فيه هذا السكن التقليدي إرثا عمرانيا وثقافيا. فأصبحنا أمام ازدواجية النمط السكاني والانتقال من واحة قصور وقصبات إلى واحة متمدنة. هذا التمدن السريع ساهم بشكل كبير في تغيير المشهد الخارجي المعماري واندثار العمل الاجتماعي والتضامني الذي يميز المجالات الواحية. إضافة إلى حدوث

اختلالات مجالية أخرى، استدعى ذلك اتخاذ تدابير عاجلة لإنقاذ هذه المجالات الواحية واستدامتها.

بناء عليه يمكن صياغة إشكالية الدراسة في الأسئلة الآتية:

-أين تتجلى مظاهر تحولات نمط السكن داخل الواحة؟

-كيف أثر السكن العصري الحديث على خصوصيات الواحة؟

– ما الحلول التي يمكن اتخاذها لتحقيق تنمية مجالية مستدامة للواحات الجنوبية المغربية؟

أهمية الدراسة: يستمد هذا الموضوع أهميته أولا في كونه يشكل إحدى ركائز التراث المادي المعماري الأصيل للواحة، وكون المجال المدروس لم يلقى ما يستحقه من اهتمام كبير من طرف الباحثين مع أنه يشكل مجال خصب للدراسة. علاوة على كشف الكثير من التحولات العمرانية بمختلف تجلياتها في ظل الدينامية التي يعرفها المجال الواحي وتكمن أهمية الدراسة أنها تجمع بين الطابع الوصفي التشخيصي والطابع التحليلي، من خلال رصد العوامل المتحكمة في التحول السكني بواحة مزكيطة، وصولا لمقترحات وتوصيات عملية

محددات الدراسة وأدوات الدراسة :

عالجنا هذا الموضوع وفق منهج علمي، أمكننا من ملامسة مجموعة من الجوانب ذات الصلة بالإشكالية اعتمدت على مجموعة من التقنيات والأدوات التي تميز البحث الجغرافي. وقد ارتكزت المنهجية المعتمدة على الملاحظات

والتحقيقات الميدانية الذي قمنا بها، التقاط الصور وغريها، بالإضافة الى العمل البيبليوغرافي، وكذا الاعتماد على تقارير ووثائق مختلف الفاعلين.

مفاهيم البحث:

يعتبر مفهوم الواحة من المفاهيم الأساسية المؤثثة لبنية هذا البحث، ولذلك سنحاول تعريف هذا المفهوم وأن نلم بدلالاته المختلفة، فمفهوم الواحة حسب معظم الدارسين هو مصطلح مصري قديم، وتعني بقعة من الخضرة في مجال قاحل تعتمد على الري، ويتميز بمناخ محلي ونظام زراعي كثيف ومتنوع وسط محيط قاحل.

فهذا التعريف يتضمن تعريفات أخرى متضمنة حسب كل حقل علمي فالجغرافي يعرف الواحة بأنها مجال أخضر وسط مجال قاحل، بمعنى أن وجود هذا المجال مرتبط بتوفر مورد مائي قار، فيما يعرفه الاقتصادي بأن الواحة تتميز بكثافة وتنوع الأنشطة (الزراعة – تربية الماشية–الصناعات المحلية– التجارة– استخراج المعادن..). ويعرفها المتخصص في علم المناخ بأنها مجال يتسم بالرطوبة ولطافة الجو أي بمناخ محلي ناتج عن الأشجار والزراعات التي توجد بالواحة، بالنظر إلى الوسط القاحل الذي توجد فيه، ومن الناحية السكانية فالواحة تتميز بكثافة سكانية عالية مقارنة مع المجالات المجاورة، ومن الناحية السوسيولوجية فالواحة هي مجال للتعاضد والتضامن والترابط الاجتماعي، تحكمه الأعراف والتقاليد، ومن زاوية المؤرخ فالواحة هي مجتمع صغير له تنظيمات سياسية متماسكة تدبر شؤونه بشكل محلي في

إطار النظام العام للدولة ولكن له استقلال نسبي في تسيير شؤونه المحلية، يحاول فيها الإنسان نقل تاريخ الأجداد من جيل إلى جيل آخر.

القصر : القصر عبارة عن وحدة سكنية تنفرد بها واحات جنوب شرق المغرب، فهو من جهة متكيف مع الظروف البيئية للمنطقة، ومن جهة أخرى مع الظروف التاريخية والاقتصادية لهذه الواحة، لكن ما يميز القصر في درعة هو تموضعه وسط مساحات زراعية شاسعة يقوم بخدمتها وحراستها سكان القصر. ومن تم، فإن مواد بنائه كلها محلية (تراب، طابية، تابوت، حجر، خشب النخيل... القرميد الأخضر) وكلها متاحة بالمنطقة وتتلاءم فقط مع الخصوصيات المناخية، والحاجات الاجتماعية التي سادت المنطقة طيلة قرون، ويستعمل زيادة على ذلك مواد موجودة على الأرض تتيح للقصور أن تندمج جماليا مع محيطها. وهكذا فالقصر عبارة عن قرى محصنة ذات تصميم هندسي محكم، وذات نمط متراص ومغلق على شكل بيوت متصلة فيما بينها تتخللها أزقة محاطة بسور ضخم وبأبراج كانت تستعمل للمراقبة، وباب واحد هو باب القصر كله، وهذا النمط من السكن ذو وظيفة دفاعية أساسا، وهي الملاحظة الأولى التي تتبادر إلى الذهن من النظرة الأولى للقصر.

1- التعريف بواحة مزكيطة:

تقع واحة مزكيطة بني خط طول 6°15 و 6°30 غرب خط جرينتش، وبين خط عرض 30°45 و30°30 شمال خط الاستواء، وتنتمي إلى إقليم زاكورة. كما أنها مشكلة من خمسة جماعات، منها 4 جماعات قروية وهي: جماعة أفرا،

جماعة مزكيطة، جماعة تانسيفت وجماعة أفلاندرا. إضافة إلى جماعة حضرية واحدة، وهي بلدية أكدز، التي تشكل أكبر تجمع سكاني بالواحة. تشكل بوابة درعة، حيث ممتدة من" أفلاندرا " إلى " إمي – ن – تنسيخت"، على مسافة 34 كلم. ويختلف اتساعها من العالية إلى السافلة، حيث يبلغ أقصى اتساعها حوالي كيلومتر ونصف، وتبلغ مساحتها 4752 هكتار، منها 2632 هكتار مسقية، كما تضم حوالي 27 قصر (قصر تالوين، أكدز، تفركالت....). يقطع مجرى وادي درعة واحة مزكيطة بشكل طويل من سد المنصور الذهبي اتجاه الجنوب الشرقي.

خريطة: توطين مجال الدراسة وطنيا وجهويا وإقليميا

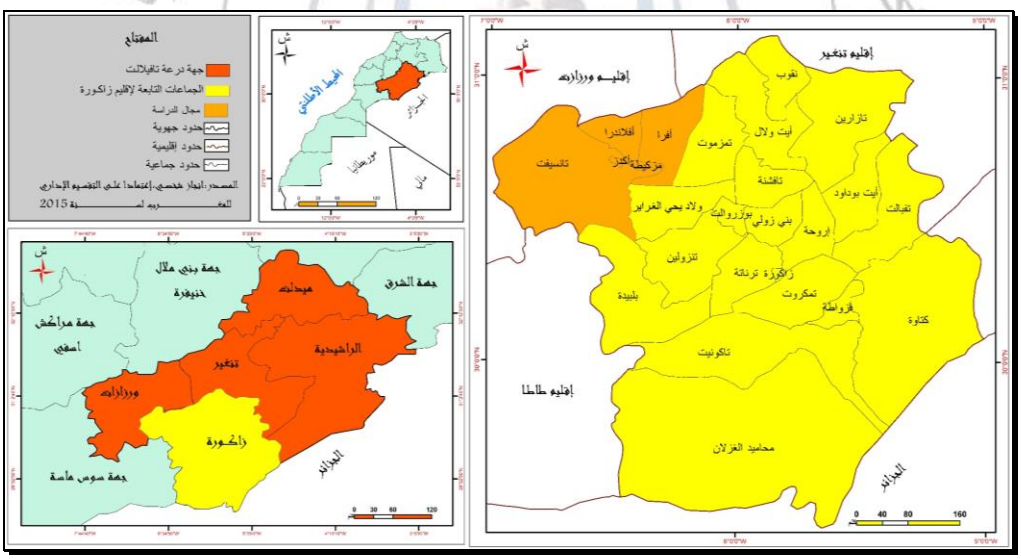

المصدر: انجاز شخصي اعتمادا على التقسيم الترابي للمغرب سنة 2015

تتميز الواحة بسيادة مناخ صحراوي قاحل، حيث ارتفاع درجة الحرارة صيفا، وانخفاضها شتاء، وما يرافق ذلك من قلة التساقطات وارتفاع نسبة التبخر الشيء الذي أثر بشكل كبير على وضعية الموارد المائية، ويؤدي هذا المناخ القاحل، والنمو السكاني المتزايد، والجفاف المتكرر، إلى الضغط على الموارد الترابية وبالتالي اختلال التوازن الإيكولوجي بالواحات.

ومن الناحية الاقتصادية، تشكل الفلاحة المورد الأساسي للإنسان الواحي رغم قساوة الظروف الطبيعية والمناخية، ويرجع الفضل في ذلك إلى تكيف السكان مع هذه الظروف من خلال تنظيم المجال بطريقة تمكنه من توفير حاجياته المادية اعتمادا على وسائل إنتاج تقليدية. وتعد التمور في مقدمة المنتوجات الأخرى المستغلة داخل الواحة مع ظهور زراعات جديدة أهمها البطيخ الأحمر.

إن الربط بين المقومات الطبيعية والبشرية يعد من بين المسلمات المعتمدة في رصد تطور الظواهر الجغرافية داخل كل مجال. فالمعطيات البشرية لواحات درعة الوسطى، تؤكد قدم التعمير السكاني على شكل قصور وقصبات داخل الواحات وتشير إلى أن عدد السكان في تزايد مستمر، رغم ارتفاع وثيرة الهجرة وقساوة الظروف الطبيعية.

2- مظاهر التحول العمراني في الواحة

يعتبر التحول العمراني - سواء أكان مخططا أو عشوائيا- جزء من المراحل العمرانية للواحة، ويحدث جراء ذلك تغيرا في الهيكل العمراني للواحة بسبب نمو السكان والأنشطة، ويكون ذلك في القطاع المعمر (داخل

المنطقة المبنية) أو على الأطراف، وتظهر نتائجه في الوظيفة والحجم والشكل. وقد عرف النسيج العمراني – وما زال – في واحة مزكيطة جملة من التحولات، وسنركز فيما يلـــي علـــى الجانب المورفولوجي للنسيج العمراني ونمط وهندسة المساكن، والتي يمكن حصر أهم صورها مـــن خـــلال الدراســـة الميدانية.

2-1 التحول في مورفولوجية النسيج العمراني للواحة

تم الاعتماد في الأنوية الأولى للنسيج العمراني– شأنها في ذلك شأن باقي الواحات – على التصميم المتلاصق على شكل قصور تضم عائلات، وقصبات باعتبارها جوف القصر والقصبة جوف الحصن ينبن فيها بناء هو وسطه والغرب في الغالب يطلقون هذه الكلمة على كل ما له شبه كبير ببنيات القصب مجازيا وانتقلت بعد ذلك للدلالة على تلك المباني.1 حيت نجد بالواحة احد اقدم القصبات وهي "قصبة الكلاوي2" التي تم بنائها من طرف هذا الأخير أثناء تغلغله في المنطقة والتي اتخذها قاعدة له، واستقر بها هو وعائلته خلال الاستقلال.

[1]– عبد الله العباسي: البناء التقليدي بالجنوب المغربي القصبات بإقليم ورزازات نموذجا مجلة جامعة غرف الصناعة التقليدية.

[2]الكلاوي حاكم منطقتي تودغى ودادس وكذلك درعة ، هو من سهل مأمورية المستعمر في شخص (الضابط سليمان والجنرال ليوطي).

الصورة(1): النسيج العمراني بالواحة متلاصق

المصدر: بحث ميداني فبراير2022

فالقصر هو بناء متماسك لمجموعة من المنازل تتخذ شكل مربع تنتصب في زواياه الأربع أبراج، و يحيط به سور أو سوران متكاملان مع الأبراج (محمد البوزيدي، 2020 ،ص215)، كلها أعدت لحماية القصر من غارات الأعداء والقصور المجاورة، وتسهيل المراقبة، ويتوسط السور من أحد الأوجه باب كبير يسمى "**بفم القصر**" يكون دائما مرتفعا نسبيا عن بقية أجزاء القصر السكن المحيط به (عبد اللوي علوي، 1996،ص217).

ينتج عن القصر شوارع ضيقة توفر إمكانية تظليل البيوت بعضها ببعض نتيجة عدم تعرض واجهتها للإشعاع الشمسي، حيث أن الواحة تتميز بالحجم الساعي الهائل في مجال السطوع الشمسي طيلة أشهر العام، وقد تم أحياناً تسقيف أجزاء من شوارع القصر بغية تحقيق الراحة المناخية خـــلال النهـــار.

2-2 مواد البناء المستعملة في قصور واحة مزكيطة

اعتمد سكان الواحة منذ القدم وإلى يومنا هذا على مواد محلية طبيعية ومتاحة، بداية بالتراب ومشتقاته، إضافة إلى جذوع النخل والقصب والأخشاب... [1]هذه العناصر بينت فعاليتها وصلاحياتها كحلول معمارية ملائمة لبيئة الواحة، حيث أنتجت عناصر معمارية قاومت عوادي الزمن منذ مر العصور، يقول **الوزان" وعلى ضفاف النهر يتوالى عدد كبير من القرى والقصور المبنية بالحجارة المنحوتة والطين والسقوف، كلها من جذوع النخيل، وكذلك مع الخشب، مع أن هذا الخشب ليس له قيمة كبيرة."** وبناء القصور يعرف بالهندسة الترابية، التي تتميز بجمالها وفخامتها المستقاة من بساطتها وانسجامها مع الوسط الطبيعي الذي أنشأت فيه، وهو أيضا ما يعبر عن وحدة هذه المناطق وتميز شخصيتها.

2-3 التحول في نمط المساكن :

يعرف نمط المساكن في الواحة تحولاً، حيث تم الانتقال من النمط الفردي التقليدي إلى النمط الفردي العصري ومؤخراً النمط شبه الجماعي. يعد **النمط**

1 حافظي علوي حسن،"مواد البناء ببلاد المغرب من خلال كتاب "الإعلان بأحكام البنيان" لابن الرامي"، ضمن ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض البحر الأبيض المتوسط، مرجع سابق، ص 60.

الفردي التقليدي النمط الأصيل للواحة، وهو عبارة مبنى يحوى مسكن واحد يتسم بالاتساع، هذا النمط يحاكي في تصميمه ظروف المنطقة الطبيعية و الثقافية[1]، وذلك ابتداء من واجهته، مروراً بمدخله الذي يمنع رؤية ما بداخل المسكن وذلك حفاظاً على خصوصية وحرمة الأسرة، ووصولاً إلى الحوش أو الفناء (يسمى محليا بالرحبة) الذي يتوسطه، والذي يعمل كمنظم حراري بالمسكن، وانتهاء بالسطح الذي يستعمله أهل المنزل لأنشطتهم الحياتية " لأغراض عدة كتخزين التمور وأعلاف للحيوانات، وأيضاً تجفيف الملابس، كما يستعمل للتشمس شتاءاً وللنوم ليلاً في الصيف.

أما **النمط الفردي العصري** فهو أيضا مبنى به مسكن واحد، إلا أنه ما يميزه عن النمط السابق كونه أقل اتساعا، فهو مفتوح على الخارج من خلال مجموعة من النوافذ الكبيرة، وهذا النمط عبارة عن برامج سكنية عمومية قامت الدولة بإنجازها ابتداءاً من أواخر سنوات السبعينات.

1 ميموروجي،" المسكن التقليدي في وادي تودغة بالمغرب"، ترجمة إبراهيم الخطيب، مجلة المناهل، عدد 74/73، فبراير 2005، ص 108

الصورة(2): السكن العصري بالواحة

المصدر: بحث ميداني فبراير2022

النمط المختلط واختلال المشهد الواحي

السكن المختلط يشغل نسبة كبيرة ضمن تراب الواحة، ويتميز هذا النوع من السكن باستعمال مواد تمزج بين مواد محلية تقليدية ومواد عصرية في نفس الوقت، وقد نجد ذلك في مسكن. من خلال تشخيص نوعية السكن السائد بالواحة،

تبين عموما أن السكن يتمحور بشكل كبير حول الطريق الوطنية رقم 09، والطريق الرابطة بين أكدز وافلاندرا.

الصورة (3): السكن المختلط واختلال المشهد الواحي

المصدر: بحث ميداني فبراير2022

و يتسم هذا النمط بتنوع مهم، حيث نجد السكن التقليدي الذي يتمثل في القصور المبنية بمواد محلية وتتخلله بنايات عصرية من الاسمنت. كما هو موضح في تصميم التهيئة بإحدى جماعات الواحة(الجماعة الترابية أكدز).

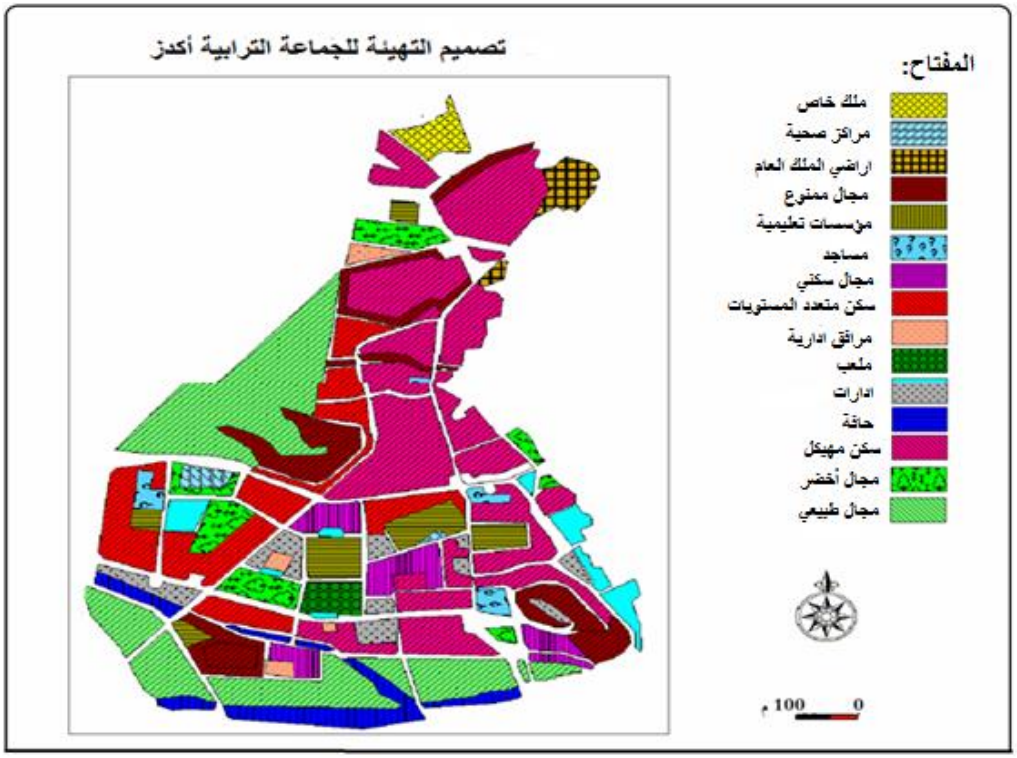

المصدر: القسم التقني لبلدية أكدز – بتصرف–

و كانت الأهداف المسطرة و المتوخاة من هذا التصميم تتمحور حول العناصر التالية:

– الحفاظ على الموروث العمراني المحلي.

– حماية و إعادة الاعتبار للمواقع الطبيعية.

عموما فتصميم التهيئة" المعمول به حاليا "يعتبر مخططا طموحا، و رغم بعض النقائص التي تعتريه، خاصة فيما يخص المناطق التي يمنع فيها البناء، بحيث لم يضع حدودا في هذا المجال، لمنع التوسع في اتجاه الواحة، مما سمح لاكتساح

الاسمنت المسلح للمجال الفلاحي، إضافة إلى هامش التوقعات الذي كان محدودا، بحيث أن الواقع أثبث أن التوسع هو في اتجاه الغرب والشمال الغربي، أي في المحور الطرقي نحو ورزازات.

4-2التحول في مادة بناء المساكن :

تم بناء المسكن الفردي التقليدي في الواحة بمواد ملائمة للمناخ المحلي الحار والجاف، حيث استعمل في ذلك مادة الطوب المشكلة من مزيج مادتي الطين والرمل، كما أن الجدران الخارجية لهذا المسكن تميزت بالسمك الكبير الذي يصل إلى حوالي 50 سم صورة 12 ،أما السقف فهو مكون من طبقة من جذوع وجريد أو سعف النخيل.

الصورة (4): مكونات السقف بالسكن التقليدي

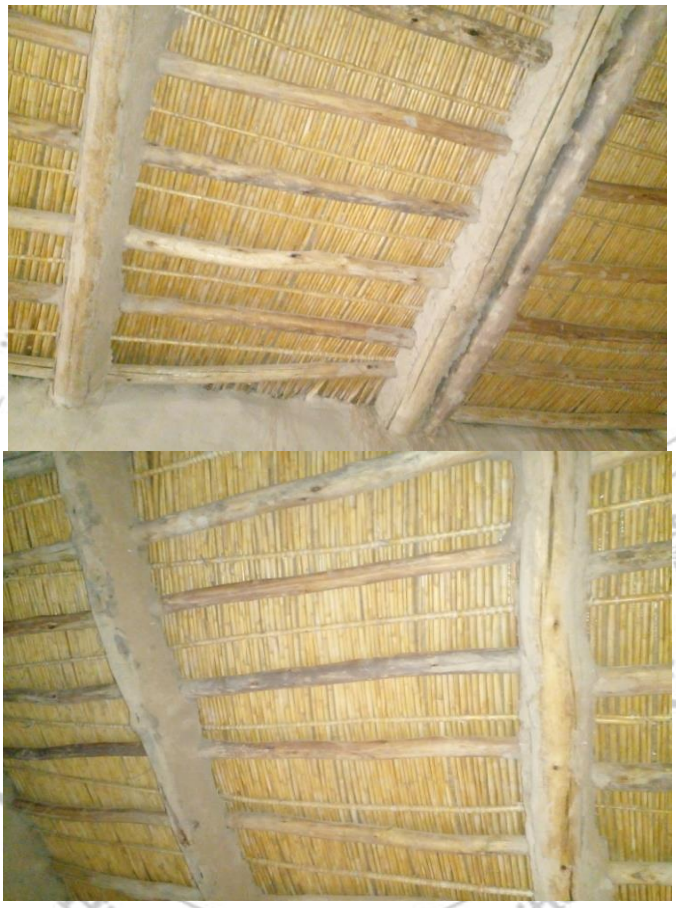

المصدر: بحث ميداني فبراير2022

كما توضع علها مادة الطوب، وبالتالي فمواد البناء المستعملة هنا تحاكي البيئة المحلية، وتتناغم معها[1].

[1] لمراني علوي محمد،" المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت: قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين تنشران لأول مرة"، ضمن ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، مرجع سابق، ص110

إن استعمال مادة الطوب في البناء راجع –إضافة إلى توفرها محليا – إلى الخصائص العالية التي تتمتع بها هذه المادة في مسألة العزل الحرارى، حيث أن مادة الطين لها خاصية عالية في تخزين الطاقة الحرارية من البيئة المحيطة وتباطؤ كبير في معدل توصيلها.[1] أما النمطين الفردي العصري والشبه جماعي، وكذلك مختلف الترميمات أو إعادة البناء التي تشـــهدها مســـاكن النمط الفردي التقليدي، فإن كل ذلك أصبح يعتمد فيه على مادة الاسمنت والخرسانة المسلحة، هاته الأخيرة التـــي لهـــا خاصية التوصيل السريع للحرارة وكذلك سرعة الفقدان لها، وهو الأمر الذي يؤثر في مدى الراحة المناخية التي توفرها للساكنة بداخلها.

2-5 التحول في مستوى البناء :

يشهد أيضاً مستوى البناء في التوسع الحالي للواحة وكذلك في بعض التعديلات التي أدخلت على بعض أجزاء النسيج العمراني القديم تحولاً، فنجدة قد انتقل إلى عدة طوابق فعلى مستوى التوسع العمودي تطغى البنايات ذات 2 إلى 3 طوابق، لكن هذه البنايات غير منتظمة في مكان موحد، حيث تخترقها بنايات أخرى ذات طابق واحد. ويتحكم في ذلك مدى الإمكانيات التي تتوفر لها كل أسرة حيث يختلف علو البناء حسب إمكانيات كل أسرة. وهو ما يحدث تشوها على مستوى المشهد العام.

[1] حافظي علوي حسن، "مواد البناء ببلاد المغرب من خلال كتاب " الإعلان بأحكام البنيان" لأبن الرامي"، مرجع سابق، ص 54

2-6 التحول في المعالجات المعمارية لواجهات المساكن :

كانت واجهات المساكن في النمط التقليدي بسيطة وبها تشـــكيلات معمارية تقليدية، تتميز بلونها البني الناتج عن مادة الطوب المستعملة في بنائها، وكما رأينا ســـالفاً فقـــد كانـــت هـــذه الواجهات شبه مصمتة وتبين أن فلسفة العمران في الواحة كانت مفتوحة على الداخل من خلال الفناء الداخلي (الرحبة)، ولكن ما يلاحظ اليوم في بعض المساكن الحديثة هو واجهاتها الهجينة والتي تعكس ثقافات دخيلة لا تعبر عن الموروث العمراني المحلي. و بالتالي فقد أصبحت بعض الواجهات مفتوحة على الخارج من خلال عدة نوافذ.

3- أسباب التحول العمراني في واحة مزكيطة

نجمت التحولات العمرانية التي يشهدها النسيج العمراني لواحة مزكيطة عن تداخل عدة مسببات، والتي يمكن حصر أهمها – من وجهة نظرنا المتواضعة – في الآتي :

عدم تطبيق توجيهات أدوات التهيئة والتعمير بشكل صارم ، وذلك بالرغم من أن الواحة استفادت من عدة أدوات في هذا المجال، والتي تهدف في الأساس إلى تنظيم المجال العمراني وحماية التراث المبني. إلا أنه وبالرغم من ذلك فإن توجيهات مخططات شغل الأراضي الخاصة بالجماعات التي اقترحها المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير لم تحترم أو أدخلت عليها تعديلات أو أنها بقيت حبراً على ورق ولم تطبق.

أما فيما يخص التهيئة الترابية والتعمير يمكن القول أن التراب الحضري لأكدز يتمتع بوجود مجموعة من آليات التهيئة الترابية التي تمكن الفاعلين من مواكبة مسلسل التنمية بتراب أكدز، من خلال الضبط والتحكم والتنظيم، لكن على الرغم من ذلك فإن هذه الآليات لوحدها غير كافية للتحكم في جميع التحولات التي يعرفها التعمير بتراب الجماعة، حيث إنه يعرف توسعا مجاليا سريعا في الوقت الذي استنفذ فيه الوعاء العقاري للتجزئات السكنية، وبالتالي توسع السكن على حساب المجالات المهددة بالفيضانات... الخ. مما يستدعي ضرورة التحكم في التوسع المجالي للمدينة. وهي من انتظارات الساكنة المحلية التي تدعو لضرورة تبني الحكامة والمحاسبة، وتجاوز كل الإشكالات المرتبط بالمحسوبية والزبونية التي يعيشها ميدان التعمير.

وهنا نتساءل عن الفائدة من صرف أموال طائلة على دراسة هذه المخططات؟ وهل القيام بالدراسات هدف في حد ذاته، أما أن الهدف هو التقيد بتطبيق توجيهات تلك المخططات على الميدان، واعتبارها قانون التعمير الذي ينظم مختلف العمليات التي تمس النسيج العمراني؟ اللامسؤولية – أو ربما الجهل أحيانا– من طرف الهيئات التقنية والمسؤولين المحليين في اتخاذ بعض القرارات التي تخص التدخل على النسيج العمراني القديم وعدم التقيد من طرف بعض الساكنة بالتصاميم الهندسية للمساكن التي تم على أساسها منح ر خصة البناء.

جعلت الثورة المعلوماتية والتكنولوجية الكبيرة بالإمكان الاطلاع على مختلف البيئات العمرانية بكل سهولة ويسر، وهو ما أدى بالبعض إلى الانبهار بتصميمات معمارية لا تمت بصلة إلى الموروث المحلي للواحة بكل ما يحمله من زخم. يرجع التوسع العمودي في الواحة إلى الطلب المتزايد على السكن، وفي غياب أوعية عقارية جديدة مهيئة لذلك فقد لجأ بعض الساكنة إلى الاعتماد على التوسع العمودي داخل النسيج العمراني القديم هذا من جهة، ومن جهة ثانية تغير النظرة الحالية للسكن من طرف البعض، فلم يعد ينظر إليه باعتباره مجال خاص بالوظيفة السكنية فقط، وإنما يمكن استغلال الطابق الأرضي فيه لإنجاز محلات تجارية للكراء، وخصوصاً بعد الإمكانية التي وفرتها الخرسانة المسلحة في هذا المجال أي لسهولة بناء عدة طوابق وأصبح بالإمكان الاعتماد على الطاقة الكهربائية لتحقيق الراحة المناخية داخل المساكن، وهو ما عزى بالبعض إلى العدول عن المواد التقليدية التي اعتمدت سابقا في البناء والتحول إلى مواد بناء عصرية.

4- نتائج التحول العمراني في واحة مزكيطة :

أدت التحولات العمرانية في واحة مزكيطة التي تم التطرق إليها آنفاً إلى مجموعة من النتائج نذكرها في ما يلي :نسيج عمراني مشوه : أدت عمليات الترميم أو الهدم وإعادة البناء بواسطة الاسمنت والخرسانة المسلحة التي قام بها الساكنة في الأنوية القديمة للواحة إلى تداخل بين المساكن التقليدية والحديثة.

الصورة (5): نسيج عمراني مشوه

المصدر: بحث ميداني فبراير2022

تتضح مجموعة من التغييـــرات التي تم إدخالها من طرف القاطنين بالنمطين الفردي العصري والشبه جماعي، والتي تمثلت في بتسييج بعض النوافذ المطلة علـــى الخارج أو حتى غلقها نهائيا وكذلك زيادة ارتفاع السور الخارجي للمسكن.

تلاشي ملامح الهوية العمرانيـــة :

وجاء ذلك نتيجة للهندسة المعمارية في بناء بعض المساكن والغريبة عن التشـــكيلات المعمارية الأصيلة التي عرفتها الواحة عبر مسارها العمراني، والتي أوضحنا سابقاً أنها كانت مفتوحـــة علـــى الداخل وتحافظ على حرمة وخصوصية الأسرة .وبالتالي فقد أدخلت اليوم بعص المساكن ذات طراز معماري لا يمت بصلة إلى المنطقة لا مـــن حيـــث البيئـــة الطبيعية الصحراوية ولا من حيث القيم والعادات للساكنة، وأصبحت مفتوحة على الخارج مـــن خـــلال النوافـــذ الكبيرة.

الصورة (6): تشكيل عمراني عصري وطمس للهوية

المصدر: بحث ميداني فبراير 2022

وهو أمر غاية في الخطورة كونه يؤدي إلى تلاشي ملامح الهوية العمرانية للواحة. ولا يمكن تعريف أي مجال بمعزل عن جغرافيته وتاريخه، واللذين يمكـــن اعتبارهمـــا عنصرين مهمين في حياة الواحة، هذه الأخيرة التي تبنى على المكان وتؤرخ من خلال عمرانها للحقب الزمنية المختلفة التي شكلت

الموروث العمراني بكل زخمه. وبالتالي وانطلاقاً مما سبق فإننا نعتبر أن التحول العمراني بالواحة أدى إلى ضياع و فقدان جزء من تاريخها المرئي.

الاقتراحات والتوصيات:

تقتضي التحولات العمرانية التي تشهدها واحة مزكيطة وضع تصورات من خلال مجموعة من الاقتراحات والتوصيات، والتي نراها ضرورية قصد الحفاظ على الموروث العمراني وعلى الهوية المحلية، وتتمثل في الآتي:

– وضع شروط صارمة في اختيار مكاتب الدراسات الموكل إليها إنجاز مختلف مخططات التعمير، وأيضاً مختلف الدراسات العمرانية، حيث لابد أن يكون ذلك ضمن نطاق الخصوصيات المحلية، بعيداً عن المخططات النمطية (نسخ طبق الأصل) لعدة أمكنة مختلفة بيئيا. كما أنه من الضروري في هذا المجال أخذ آراء كل الفاعلين في ميدان التعمير عند المصادقة على هذه المخططات، وإذا اقتضى الأمر توسيع دائرة الرأي لتشمل مختصين في علم الاجتماع والتاريخ و الجغرافيا والاقتصاد.

– ينبغي لاستدامة الهوية العمرانية للواحة أن تستلهم التصميمات المعاصرة من التشكيلات المعمارية الأصلية الموروثة محليا، كما يجب في هذا الصدد أيضا أهمية توعية الساكنة وخصوصا بالأنماط القديمة لواحة مزكيطة و بأهمية الحفاظ على شخصية الواحة وعلى طابعها العمراني.

– لابد للهيئات التقنية المخولة لها استصدار مختلف عقود التعمير أن تشدد على مسألة الحفاظ على النمط العمراني المحلي، وهذا عند تسليم رخص البناء.

- ضرورة اشراك الساكنة في مختلف عمليات التهيئة العمرانية، وأخذ آرائهم ومقترحاتهم في هذا الجانب بعين النظر، كونهم المستهدف من كل تلك العمليات،

وبهذا نجعل من الواحة ومجالها العمراني فضاء تتقاسم فيه الكلمـــة جميـــع الأطراف المستعملة له دون إهمال أو إقصاء أي طرف بغية حماية المباني والهياكل القاعدية بالواحة من التلف.

- استغلال الكمية الهائلة للسطوع الشمسي التي تعرفها الواحة طوال أيام العام في توفير الطاقة، وهو أمر يندرج ضمن مفهوم التنمية المستدامة كونه يعتمد على طاقة نظيفة.

Journal of the Higher Institute for Specific Studies - Giza

المراجع :

1- أبا صدقي2013 ،الإشكالات التقنية والقانونية لتدبير التراث المعماري بواحات الجنوب الشرقي المغربي، مقال منشور في كتاب "التراث المعماري بالمغرب"، منشورات مركز الدراسات التاريخية والبيئية بالمعهد الملكي للثقافة أألمازيغية، الرباط، عدد الصفحات 1-19

2- أحمد البوزيدي1994 ،التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن17 مطلع القرن 20م دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال وثائق محلية، مجلة آفاق، صدر الكتاب بدعم من مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء.

3- أحمد البوزيدي2001، الزوايا العلمية بواحة "اكتاوة" على عهد السعديين والعلويين، ضمن مجلة أمل عدد مزدوج 22-23 ،نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة.

4- أحمد مزيان1988، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي خالل القرن التاسع عشر فجيج ما بين 1845م-1903م، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، جامعة محمد الخامس، كلية آلداب والعلوم اإلنسانية الرباط، المغرب،مطبعة فجر السعادة، الجزء الأول.

5- أحمد عبد اللوي علوي1996، مدغرة وادي زيز إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية،

6- الحسن بن محمد الوزان الفاسي1983، وصف إفريقيا، مجلد، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الجزء الثاني، بيروت.

7- المهدي بن علي الصالحي2008، الرحلة الدرعية الكبرى، ديوان صدر عن مطبعة "بيبلي سيد "بورززات.

8-عبد اللطيف السملالي2006، تدخلات الدولة ودور والمجتمع المدني في التنمية القروية بجماعة تاكونيت واحة اكتاوة، بحث نيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في الجغرافيا، كلية آالداب والعلوم االنسانية ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

9- عبد الواحد مهداوي الصادقي2020، التنظيم العمراني والمعماري بقصور المغرب الشرقي قصر الزاوية الصادقية نموذجا، مقال منشور في مجلة المناهل، ملف العدد: مدن وحواضر مغربية، عدد الصفحات 231-248.

10- محمد البوزيدي2020، قصور واحات الجنوب الشرقي بين الماضي والحاضر، مقال منشور في مجلة المناهل، ملف العدد: مدن وحوضر مغربية، عدد الصفحات 215-229.

11. Aba Sadki(2007), environnement, paysage et projet de territoire, vers une approcheterritoire pour la sauvegarde et la mise en valeur de la réserve de biosphère des Oasis du sud Marocain, mémoire de master, Université Senghor, France;

12. Aziz Bentaleb (2011), pompage de l'eau et désertification dans la vallée du Draâ moyen: cas de la palmeraie de Mezguita (Maroc), article publié dans le Revue Algérienne d'Anthropologie et de sciences sociales, p 65-81, p 66;

13. F. De lachapelle(1929), une cité de l'oued Draa sous le protectorat des nomades, Nesrat, Revue d'histoire, p 29-42, pp 223-224;

14. Jacques Franchimont(2001), national study on biodiversity in Morocco, synthetisis report, Ministery of Territorial Planing, Water and Environment, Morocco;

15. Niclausse(1954), rapports entre nomades et sédentaires dans le coude du Draa, la Raia, 120 p, C H.E.A.M;

18. Pierre Azam(1947), la structure politiques et sociale de l'oued Draa, 20 p, C.H.E.A.M